ثقافة

كان أبوه معلمه الأول ، قرأ عليه القرآن وحفظه ، وتفقه فى القراءات السبع .

وكانت تونس إذ ذاك مزدانة بعلماء المغرب وأدبائه ، وكانت منزل الوافدين عليها من علماء الأندلس الذين شتتتهم أحداثها او لم يجدوا طمأنينة وخيراً فى الإقامة بها ، فتتلمذ بعد أبيه على هؤلاء وهؤلاء ، فدرس عليهم العلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه وأصول على مذهب الإمام مالك ، والعلوم العربية من لغة ونحو وأدب ، والعلوم الفلسفية ولا سيما المنطق ، وقد برع فيه براعة عظيمة ، وهو يحدثنا بهذه البراعة وبثناء أساتذته عليه ، وتشجيعهم له بالجوائز ، ويحدثنا أيضاً أنه حفظ المعلقات وديوان الحماسة ، وغيرهما من شعر القدامى والمحدثين ، ويحدثنا عن دراسته للموطأ وصحيح مسلم ، وقراءته فلسفة ابن رشد والتصوف الإسلامى ، ودراسته الجغرافيا فى كتاب بطليموس والشريف الإدريس . ويحدثنا أيضاً عن أساتذته ونبوغهم فى العلوم التى درسها عليهم [1] . وقد يجوز لنا أن نرتاب قليلا فى بعض ما ذكر ، لأنه كتب هذا التعريف بنفسه وهو فى مصر حيث المنافسة والاحقاد ، والتبريز فى العلوم ، والأنداد المتألبون عليه ، فمن المتوقع أن يبالغ فى تفصيل تعلمه وعلومه ، وأن يبالغ فى ذكر الكتب التى درسها ، وفى أقدار أساتذته الذين تلقى عليهم ، لئلا يبدو أمام علماء مصر المنافسين له أقل اطلاعا ، وأقصر باعا .

(١) التعريف والمقدمة ٥١٠ .

والحق إن الفلسفة التى كتبها للتاريخ ، وبصره بأحوال الاجتماع ، ونظراته الصائبة الدقيقة فى علم الاجتماع ، كل أولئك يشهد له بالعبقرية والاطلاع الواسع . ولا عجب ، فقد اطلع على مكاتب تونس ومراكش وغرناطة والقاهرة ودمشق وقلعة سلامة ، وأفاد من أسفاره وتنقله فى هذه الأقطار خبرة واسعة ، ثم إنه قضى نحو ربع قرن فى خدمة الملوك يغامر فى ميادين السياسة ، ويجوس خلال البلدان يدرس ويستقصى ويلاحظ ويختزن ما يلاحظ وينتفع به . فنحن نعلم أنه نشأ بالمغرب وعرف أحواله ، ودرس قبائله ، وخبر بدوه وحضره . ونعلم أنه رحل إلى الأندلس ، وتعرف حال من بقى بها من المسلمين ، ونعلم أنه جاء إلى مصر ودرس بها وتولى قضاء المالكية ، واطلع على كثير من شئونها وحضارتها وحالتها الاجتماعية ، وأنه سافر إلى الشام وعرف شئونها ، وأنه حج ولقى كثيراً من المسلمين فعرف أحوال الحجاز والحجيج . ونعرف أيضاً أنه اتصل بملوك عصره ، فعرف كثيراً من دخائل السياسة ، فقد اتصل بسلطان البربر ، وغرناطة ، وسلطان مصر ، واتصل أيضاً بتيمور لنك .

هذا إلى أن عصره كان يعج بالأحداث ، وقد شهدها واستفاد منها فالعرب والبربر فى صراع ، والبدو والحضر فى نزاع ، والسلاطين يتحاربون والتتار يهجمون . ولا شك أن هذه الأحداث أوحت إليه بآرائه فى البدو وفى الحضر ، وفى قوة الدول وضعفها ، ونشأتها وزوالها .

على أنى لا أغفل ينبوعاً آخر من ينابيع ثقافته هو عبقريته ، لأن ابن خلدون كان ذا عقل جبار مبتدع ، لا يمل التزود من المعرفة ، وفى الوقت نفسه يجيد الانتفاع بما عرف . فقد تولى الكتابة فجوّد ، واشتغل

كاتما للسر فأبدع ، وندب للسفارة واستمالة الخارجين فنجح ، وتولى الحجابة فبرّز ، وولى القضاء فأنصف ، وألّف فتفوق وابتكر ، ودرّس فشرِقت حلقات درسه بالطلاب المعجبين .

مؤلفاته :

قال لسان الدين بن الخطيب إن ابن خلدون عالج المنطق ، ولخص كثيراً من كتب ابن رشد ، ولخص محصل الإمام الفخر الرازى فى علم الكلام . وألف كتاباً فى الحساب ، وألف كتاباً فى المنطق ، وشرع فى هذه الأيام يشرح الرجز الصادر منى فى أصول الفقه بشىء لا غاية بعده فى الكمال ، وله شرح بديع للبردة (١) .

ولقد ذكر هذه المؤلفات قبل أن يطلع على آية بن خلدون : المقدمة والتاريخ . فهو يجهل ما نعلم ، ونعلم ما جهل ، لأنا لا نعرف من مؤلفاته التى ذكرها شيئاً ، ونحسب أن ابن خلدون قد زج فى المقدمة بما ذكره لسان الدين حين تكلم على العلوم ونشأتها وتطورها ومراجعها ، لأن ابن خلدون لم يذكر منها شيئا فى تعريفه بنفسه .

مصادره :

استقى ابن خلدون من سابقيه فى التاريخ وفى الاجتماع ، فاخذ بعض ارائه من الفارابى فى (آراء أهل المدينة الفاضلة) ، أخذ عنه حاجة الإنسان إلى الاجتماع ، ونشأة المدن والقرى (٢) ؛ وتأثر به فى تقسيم العلوم كما سنرى (٣)

---

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة فى الجزء الأخير ترجمة لابن الخطيب بقلمه ونفح الطيب ٤/١١ للمقرى (٢) آراء أهل المدينة الفاضلة ٥٣

(٣) إحصاء العلوم للفارابى . تحقيق الدكتور عثمان أمين

واستقى من إخوان الصفا فى تقسيمهم العلوم وآرائهم فى تأثير طبيعة البلدان فى الأخلاق ، وتقسيمهم الصناعات وعناصرها المحتاجة إليها ، على أنه خالفهم لأنهم فلاسفة نظريون وهو فيلسوف عملى . كما اعتمد فى تقسيم العلوم على مفاتيح العلوم للخوارزمى ، ونقل كثيراً من الآراء السياسية عن كتاب (الأحكام السلطانية) لأبى الحسن الماوردى ، وكتاب الوزارة وسياسة الملك) و (سراج الملوك) للطرطوشى الأندلسى . وكذلك عن كتاب أرسطو فى السياسة . وهو نفسه يرشدنا إلى بعض ذلك فى مقدمته إذ يقول: (فى الكتاب المنسوب لأرسطو فى السياسة ، المتداول بين الناس جزء صالح ، إلا أنه غير مستوفى ، ولا معطى حقه من البراهين ، ومختلط بغيره .. وكذلك تجد فى كلام ابن المقفع وما يستطرد فى رسائله من ذكر السياسات الكثير من مسائل كتابنا هذا غير مبرهنة كما برهناه . . . وكذلك حوّم القاضى أبو بكر الطرطوشى فى كتاب سراج الملوك ، أو بوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله ، لكنه لم يصادف فيه الرّمية ، ولا أصاب الشاكلة ، ولا استوفى المسائل ، ولا أوضح الأدلة [١])

ثم يذكر جالينوس وكتابه منافع الأعضاء [٢] ، وبطليموس وكتابه الجغرافيا [٣] ، وكتاب رجار للشريف الإدريسى [٤] ، وكتاب المشترك لياقوت [٥] ، وكتاب ابن سعيد [٦] وغيرهم . ويذكر المؤرخين كابن اسحق والطبرى وابن الكلبى والواقدى والمسعودى وأبى حيان وابن الرفيق [٧] وغيرهم وغيرهم . ويذكر كثيراً من الفلاسفة مثل ابن سينا والفارابى وأرسطو [٨] .

---

(١) المقدمة ٣٣ (٢) المقدمة ٣٥ (٣) المقدمة ٣٨
(٤) المقدمة ٣٨، ٤٤ (٥) المقدمة ٤٦ (٦) المقدمة ٤٦
(٧) المقدمة ٣ (٨) ٧٢، ٤٥٦

شخصيـــته

استقى ابن خلدون من سابقيه ، وقرأ المؤلفات التى كانت إلى عصره ، ولكنه كان ذا شخصية تبرز فيما يكتب .

لذلك نقد المؤرخين فى مقدمته ، ورأى أن فن التاريخ (محتاج إلى مآخذ متعددة أو معارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت ، يفضيان بصاحبهما إلى الحق ، وينكبان به عن المزلات والمغالط ، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ، ولم تحكّم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال فى الاجتماع الإنسانى ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد ، والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيه من العثور ، ومزلة القدم والحيد عن جادة الطريق . وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط فى الحكايات والوقائع ، لاعتمادهم على مجرد النقل غثاً أو سميناً ، لم يعرضوها على أصولها ، ولا قاسوها بأشباهها ، ولا سبروها بمعيار الحكمة ، والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر والبصيرة فى الأخبار ، فضلّوا عن الحق ، وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط ولاسيما فى إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر .) ثم يضرب أمثلة على ذلك (١) .

ويرى أن يتزود المؤرخ بثقافات شتى (يحتاج إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات ، واختلاف الأمم والبقاع والأعصار ، فى السير والأخلاق والعادات والنِّحل والمذاهب وسائر الأحوال ، والإحاطة بالحاضر من ذلك ، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو من الخلاف ، والقيام على أصول الدول والملل ، ومبادىء ظهورها وأسباب حدوثها ،

(١) المقدمة ٧

وأحوال القائمين بها وأخبارهم ، حتى يكون المؤرخ مستوعبا لأسباب كل حادث ، واقفا على أصول كل خبر . وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول ، فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا ، وإلا زيّفه واستغنى عنه [١]) .

وبهذا النظر العميق ، والفحص الدقيق وضع ابن خلدون أساس علم التاريخ وفلسفة الاجتماع ، لأن البحوث التى سبقه غيره إليها كانت ضئيلة ومبعثرة ، ولا يجمعها منهج ، فليست دراسة علمية موحدة ، وليست لها أصول تعتمد عليها ، ولا أهداف ترمى إليها .

لكنه قرأ ذلك وقرأ غيره ، وأحاله مادة أخرى جديدة ، ذات منهج مرسوم وخطة بينة ، وطابع خاص ، حتى ليصح له أن يقول (واعلم أن الكلام فى هذا الغرض — يريد الاجتماع — مستحدث الصنعة ، غريب النزعة ، أَعْثَرَ عليه البحث ، وأدى إليه الغوص . . . ولعمرى لم أقف على الكلام فى منحاه لأحد من الخليقة ، لا أدرى ، ألغفلتهم عن ذلك ؟ وليس الظن بهم ، أو لعلهم كتبوا فى هذا الغرض واستوفوه ، ولم يصل إلينا . . . وهذا الفن الذى لاح لنا النظر فيه نجد منه مسائل تجرى بالعَرَض لأهل العلوم فى براهين علومهم . . . [٢])

ومن الطبيعى أن يكون ابن خلدون قد أعاد تنقيح مقدمته ، وراجع تاريخه فى مصر ، لأنه بعد خمسة عشر عاما من تأليف كتابه أهدى نسخة منه وهو فى القاهرة إلى سلطان المغرب الأقصى عبد العزيز بن أبى الحسن ، فلا بد أنه نقحها فى خلال هذه المدة .

ويؤكد بعض مؤرخيه أنه نقحها وحذف منها وأضاف إليها ، ويرون

---

(١) المقدمة ٢٣ . (٢) المقدمة ٣٢

أنه كتب فى مصر فصولا جدُدا . وسواء أكان هذا أم ذاك ، فقد كانت بين مصر وأفريقية وبين مصر والأندلس صلات مستمرة ، مكنته من أن يَطَّلع على الإنتاج العقلى فى مصر . وهو نفسه يذكر ذلك فى عدة مواضع من المقدمة ، منها إعجابه بكتاب المغنى الذى ألفه جمال الدين بن هشام المصرى فيقول (ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها ، استوفى منه أحكام الأعراب بجملة ومفصلة . . . وسماه المغنى فى الإعراب ، وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها ، فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره فى هذه الصناعة ، ووفور بضاعته منها . . . فأتى من ذلك بشىء عجيب دال على قوة ملكته وإطلاعه) [١] .

ويذكر أن حضارة تونس متأثرة بحضارة مصر والأندلس [٢] .

وقد كان فى مصر فى ذلك العهد ميل إلى التوسع فى المعارف ، وتأليف الموسوعات العلمية كما سبق ، فمثلا حاول النويرى المتوفى ٧٣٢ هـ أن يجمع معارف عصره كلها على اختلاف ألوانها فى مؤلف واحد من ثلاثين جزءاً سماه (نهاية الأرب) . ووضع العمرى المتوفى ٧٤٨ هـ موسوعته الجغرافية فى اثنين وثلاثين مجلداً سماها (مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار)

ولعل ابن خلدون قد اطلع على هذه المؤلفات فزادته معرفة ، أو نبهته على نواح من النظر لم يكن قد تعمق فيها حينما ألف مقدمته فى تونس ، لأن عقله كان خلاّقا ، يرشف القطرة فيحولها جدولا رقراقا .

---

(١) المقدمة ٤٨٣ (٢) المقدمة ٣١١